قلت لنفسي إن وراء كل الاختراعات العظيمة تضحيات عظيمة. تراكمت الخطابات الآتية من أفراد الأسرة في حجرة معيشتي كما هي مغلقة وغير مقروءة.

وانقضى الصيف وجاء الخريف، وتغير العالم خارج نافذة معملي مرة أخرى. لقد مرت عليّ في لمح البصر المواسم التي كنت أحبها والأوقات التي كنت أترقب مجيئها بشغف. اعترتني حمى متزايدة لازمتني طويلًا معظم الليالي، وتلفت أعصابي. وكان الشيء الوحيد الذي مكنني من الاستمرار هو التفكير في النجاح.

قلت لنفسي في إحدى الليالي: «قريبًا. قريبًا سيحيا هذا الرجل.»

الفصل السادس

نجاح وفشل

في ليلة من الليالي انهمرت الأمطار بلا انقطاع خارج نوافذ معملي. شعرت بالبرد الشديد بسبب هواء شهر نوفمبر/تشرين الثاني البارد. ولم أكد أصدق أنني انتهيت من العمل. جمعت الأدوات حولي وحاولت أن أبعث الحياة في الكائن الذي صنعته. أوشكت شمعتي أن تحترق كليًّا. وشعرت بالوهن والإعياء. وعندئذ، على بصيص الضوء الخافت، رأيت المسخ يفتح عينين صفراوين كسولتين. وخرج من فمه نفس. وتحركت ذراعاه وساقاه. لقد دبت فيه الحياة!

بدأت أبكي في الحال تقريبًا. لم تكن دموع الفرح كما قد يخال لك. لا، لقد بكيت بؤسًا وندمًا.

صرخت: «ما الذي فعلته؟! يا للكارثة!»

لقد اخترت أعضاء جسمه بعناية بالغة، لكن الأمر تحول إلى كارثة. كيف أصف الرعب الذي انتابني؟ لقد رأيته قبل أن أبعث الحياة فيه، لكنني لم ألحظ أنه كان شديد القبح. والآن بعد أن أصبح على قيد الحياة، ليس بوسعي أن أفعل أي شيء سوى الندم على أفعالي.

كان حجم أطرافه مناسبًا، لكن منظر عينيه الشاحبتين المليئتين بالدموع كان بشعًا. ولم يكد جلده المصفر يغطي عضلاته وأوردته، وكان شعره أسود ومسترسلًا، وأسنانه بيضاء لؤلؤية، لكن شفتيه رفيعتان وسوداوان.

لقد قضيت عامين أصنع هذا المسخ، والآن بعد أن انتهيت تلاشت روعة حلمي كما تلاشى ضوء شمعتي. امتلأ قلبي بالرعب والاشمئزاز. ولم أستطع تحمل النظر إليه، فاندفعت خارج معملي وألقيت بنفسي في فراشي. لم أستطع أن أخلد إلى النوم

بسهولة، وراودتني أحلام سيئة مليئة بالصور المخيفة لأمي المسكينة المتألمة وإليزابيث وهي سقيمة.

وعندما استيقظت من نومي وأنا أتصبب عرقًا بغزارة، كان المسخ يقف فوق رأسي! أصدر ضوضاء، ربما كانت محاولة منه أن يتحدث. ثم رفع يده العملاقة ليمسكني لكنني وليت الأدبار من الحجرة بأقصى سرعة ممكنة. ركضت عبر السلالم، ثم خرجت من الباب ومنه إلى الشارع. وقفت لأنظر إن كان يتتبعني، ثم ركضت نحو المدينة.

أمضيت بقية الليل أجول في شوارع إنجولشتات، وأنصت إلى وقع الأقدام ورائي. تُرى ماذا كان هذا الكائن الشنيع يريد مني؟ سيطر المسخ المرعب الذي صنعته بنفسي على عقلي هذه الليلة، فكنت أرتعب لدى سماع أي صوت، وأظن أن الجسم الذي منحته الحياة مرتكبًا خطأ بشعًا على وشك الإمساك بي. تخيلت يديه الكبيرتين المخيفتين حول عنقي. كيف انتهى كل شيء إلى هذا الحال بالغ السوء؟ لقد تحول حلمي إلى كابوس حي.

مشيت طوال الليل وسط الأمطار المنهمرة بغزارة، ولم أجرؤ على العودة إلى شقتي. وأخيرًا انتهى بي المطاف عند إحدى الحانات على الجانب الآخر من المدينة حيث كانت تقف عربة سويسرية. انفتح باب العربة وإذ بي أرى صديقي العزيز هنري كليرفال.

صاح هنري: «فيكتور! كم أنا سعيد برؤيتك! يا للحظ! كيف عرفت بأمر وصولي؟»

للحظة نسيت تعاستي وأمر المسخ، وبدد نسيم الصباح البارد كل أخطائي؛ فللمرة الأولى منذ شهور أفكر في أمر آخر بخلاف تجاربي.

صحت: «هنري!» ثم عانقته بقوة وأجبته: «لا، لم أعرف أنك قادم. ماذا تفعل هنا؟ سعدت برؤيتك للغاية!»

ابتسم وقال: «أخيرًا سمح لي أبي بالذهاب إلى الجامعة. أتصدق هذا؟»

أجبته: «هذا رائع! كيف حال أسرتي؟ لا بد أنك محمل بالأخبار من أهلي. كيف حال إليزابيث؟ ووالدي؟ وأخوي؟»

أجاب: «لا تقلق يا فيكتور. جميعهم بخير، مع أنهم يتمنون لو كنت تراسلهم أكثر من هذا.» ثم لكمني في كتفي مازحًا وحدق بي وقال: «يا إلهي! أنت هزيل وشاحب، هل أنت مريض؟»

أجبته: «كنت أعمل ليلًا ونهارًا على إحدى التجارب.» نسيت كل شيء حدث لي الليلة المنصرمة وقلت في عجالة: «دعنا نعود إلى منزلي لنتناول إفطارًا شهيًّا!»

استقللنا عربة هنري إلى شقتي، وبعدما بلغنا المبنى الذي أقيم فيه تملكني الخوف. ماذا لو أن المسخ لا زال هناك؟ لا يمكن أن يراه هنري. ماذا سيظن بي؟

توقفت العربة أمام باب المبنى، وودع هنري السائق. جمعنا حقائبه واتجهنا إلى الممر الأمامي. قلت له: «انتظرني هنا دقيقة واحدة، أود أن أرتب الشقة سريعًا.»

رد هنري: «أوه يا فيكتور، لا أكترث بالفوضى. أنا متعب وأود أن أجلس في مكان لا يهتز مثل العربة.»

قلت له متوسلًا: «أرجوك، دقيقة واحدة فحسب.» ثم ارتقيت السلالم في لمح البصر. ولمّا بلغت باب شقتي اقشعر بدني. استجمعت كل شجاعتي، وفتحت الباب على مصراعيه. توقعت أن أجد شبحًا، عالمًا أن تلك المخاوف ستطاردني دائمًا. تنفست الصعداء عندما وجدت شقتي خاوية؛ لقد رحل المسخ البشع!

صحت عند السلالم: «هنري، هيا اصعد!»

جلبت لنا مديرة منزلي وجبة إفطار ضخمة، فتناولنا الطعام معًا وأخبرني هنري كل شيء عن رحلته. كانت الرحلة من جنيف في غاية الإثارة! استمر يتحدث ويتحدث عن الناس الظرفاء الذين التقى بهم على طول الطريق. ابتسمت واستمعت إلى قصصه. كم كنت أفتقد صديقي هنري! فقد أنستني أشهر عديدة أمضيتها منعزلًا في معملي متعة الصداقة البسيطة.

بعدما انتهينا من تناول الطعام لم أستطع أن أهدأ؛ فقد تحرر شيء ما بداخلي ولم أستطع كبح جماح نفسي، فبداخلي كم هائل من الطاقة. قفزت فوق المقاعد ألوح بيديّ بقوة وأقهقه على نحو هستيري. وانزعج هنري من سلوكي الغريب.

صاح في وجهي: «فيكتور، اهدأ لحظة. أنت تثير أعصابي بكل حركاتك. ما الخطب؟»

قلت له: «لا شيء! أنا في أحسن حال!» ثم انفجرت في الضحك ولم أستطع أن أتوقف.

عندئذ ظننت لحظة أنني رأيت المسخ فقلت وأنا أبكي: «لا تسألني!» ثم وضعت يدي على عيني وصرخت: «إنه يعرف! يعرف! أوه، يا إلهي أنقذني! أنقذني!» وكنت أرى في ذهني المسخ وقد أمسك بي وراح يهزني بكل قوة. قاومته، وعندئذ سقطت على الأرض.

هرع هنري إليّ، ولا بد أنه ساعدني في الوصول إلى فراشي، لكنني لا أتذكر أي شيء فقد أُصبت بحمى لازمتني لفترة من الزمن. اعتنى هنري بي عناية بالغة، وقرر ألا يخبر أسرتي في الحال لأنه يعرف أنهم سيقلقون بشدة عليّ. لا ينشد المرء صديقًا أفضل من هذا!

مرت الشهور دون أن أشعر، وملأتْ أفكار سيئة أحلامي، ومناظر بشعة للمسخ الذي صنعته. وتملكني الخوف مما فعلته ولا أستطيع أبدًا إلغاءه وكأن لم يكن. تقلبت في فراشي كثيرًا ليلة تلو الأخرى. ومكث هنري إلى جانبي ليل نهار، وكان يطعمني الحساء ويقرأ لي. تملكت الحمى مني بشدة حتى إن الأيام كانت تمر ولا أستطيع فيها أن أنهض من الفراش، فأصبحت غرفتي هي عالمي بأكمله، ونافذتي هي الطريقة الوحيدة التي عرفت منها أن العالم لا يزال موجودًا.

وبالتدريج، بعد الكثير من نوبات الفزع، بدأت أشعر بالتحسن، وكانت ألمانيا في ذلك الحين في ذروة فصل الربيع؛ فالطيور تصدح فوق الأشجار وبدأت الأزهار تتفتح. وكدت لا أصدق أنني كنت سقيمًا طوال فصل الشتاء، فكيف انقضى كل هذا الوقت؟ ما الذي حدث للمسخ؟ ما الذي فعلته؟ طردت كل هذه الأفكار من ذهني وحاولت أن أفكر في حياتي السابقة على بدء تجاربي. كم استمتعت بوجودي بالخارج. كم لهونا أنا وهنري وإليزابيث حينما كنا صغارًا. والآن تحسن مزاجي للغاية بسبب هذا الجو اللطيف جدًّا.

قلت في صباح أحد الأيام: «هنري! لقد أحسنت إليّ أيما إحسان. وكان من المفترض أن تبدأ بالفعل دراستك، لكنك أمضيت فصل الشتاء كله تعتني بي.» ابتسم هنري لكنه لم ينبس ببنت شفة، لذا استرسلت في كلامي: «كيف سأرد لك هذا الإحسان؟»

رد هنري: «لا حاجة إلى هذا. كل ما عليك هو أن تتحسن. هذا هو كل ما يهم.» وسكت دقيقة ثم قال: «لكن ثمة شيئًا واحدًا يمكنك أن تساعدني فيه.»

ارتعدت فرائصي تحت الغطاء. تراه سيسألني عن معملي؟ أو لعله رأى ما يشير إلى المسخ في مكان ما؟ لعله عرف كل شيء! لن أستطيع أن أتحمل إذا اكتشف هنري الأمر، فماذا سيظن بي؟ هل سيخبر أسرتي؟ وهل سيخيب أملهم هم أيضًا فيّ؟

لاحظ هنري هلعي فقال متوسلًا: «أرجوك لا تنزعج. أريدك أن تبعث خطابًا إلى أهلك، فهم يريدون أن يطمئنوا عليك، فالقلق يستبد بهم بشأن صحتك.»

تنفست الصعداء وقلت: «هل هذا هو كل ما في الموضوع؟» ونزعت عني الغطاء وجلست في الفراش وقلت: «بالطبع! لا أريدهم أن يقلقوا بشأني بعد الآن لأنني تحسنت كثيرًا.»

هرع هنري نحو الطاولة وقال: «ثمة خطاب هنا من إليزابيث. سأخرج بعض الوقت، وأدعك تقرؤه بنفسك.»

وابتسم لي هنري في عذوبة، وارتدى قبعته وغادر الغرفة. جلست على طاولتي وفتحت الخطاب في هدوء لا أعلم ماذا أتوقع، فقد مر زمن طويل منذ أن قرأت خطابًا من أسرتي. ورقص قلبي طربًا لمجرد التفكير في مدى سعادتي لسماع أخبارهم.

الفصل السابع

عالم بعيد عن العلوم

توسلت إليّ إليزابيث في خطابها كي أكتب إليهم ولو كلمة واحدة، فقد مر زمن طويل منذ أن سمعوا أخباري. وأخبرتني أنها اضطرت أن تقنع والدي ألا يذهب إلى ألمانيا للوصول إليّ! وأخبرتني وسط كلامها الحلو كم تاقت إلى المجيء إلى إنجولشتات أيضًا، لكنها كانت مضطرة أن تمكث للاعتناء بالمنزل وبأخوي.

أوحت لي كلمات الخطاب بالأخبار السارة فحسب؛ فقد بلغ أخي إيرنست لتوه السادسة عشرة من العمر، وأخبرتني كم يرغب في العمل في السلك الدبلوماسي، مثل أبينا. وذكرت كم كنت سأفخر به لكونه مواطنًا سويسريًّا صالحًا! وأخبرتني بشأن مدى كفاءة مربية الأطفال جاستين، وكم هي مسرورة بوجود صديقة إلى جانبها.

كتبت إليزابيث: «نحن كأختين! أنا سعيدة للغاية بوجودها معي ولا سيما لأن ويليام مشاغب للغاية!»

وأكملت بقية الخطاب بأخبار محلية حول أصدقائنا وجيراننا. استمتعت بكل كلمة في الخطاب. وأنهت إليزابيث الخطاب بطلبها مرة أخرى أن أكتب إليهم من أجل خاطرها. يا لها من فتاة جميلة عذبة. ولكم افتقدتها في تلك اللحظة. وشعرت بجمّ حماقتي لعكوفي على عملي البائس. كنت قد نسيت الأمور المهمة في العالم؛ حب الأصدقاء والأسرة.

رددت على خطابها في الحال، وأخبرتها كم أتوق لها وكم أحبها، وعندما انتهيت من كتابة الخطاب وضعته في بريد نفس اليوم.

وأخيرًا، وبعد أسبوعين آخرين استطعت أن أغادر غرفتي. كان هذا أمرًا رائعًا أيضًا، لأن هنري كان على وشك بدء دروسه ومن ثم سيتسنى لي أن آخذه في جولة في أنحاء الجامعة.

قضينا يومًا نتجول في الجامعة، وقدمته إلى كل شخص أعرفه، وأريته كل مباني أقسام العلوم القديمة وكل فصولي القديمة. وعندما بلغنا المعمل شعرت بالدم يهرب من وجهي لدى رؤيتي كل الأدوات التي أزعجتني بشدة. لاحظ هنري انزعاجي وساعدني في عطف على الخروج من المعمل. أعرف أنه أرادني أن أخبره ما الخطب، لكنني لم أستطع أن أفعل هذا؛ فالحقيقة مرعبة للغاية.

بدأ هنري دراسته في غضون يومين، ولم يكن لديه اهتمام بالعلوم على الإطلاق، وإنما أراد أن يتعلم كل شيء حول شتى لغات العالم. ولما لم أكن ممن يؤثرون الراحة قررت أن أستذكر هذه اللغات أيضًا.

قضينا الصيف على هذا المنوال؛ نقرأ ونستذكر دروسنا معًا، فقد كان من الجيد أن أشغل بالي. وأرسلت إلى أبي أخبره أنني سأعود إلى جنيف في الخريف. لكن عندما حان الوقت الذي كان من المفترض أن أرحل فيه ساءت الأحوال الجوية بشدة فاضطررت أن أمكث في إنجولشتات طول فصل الخريف.

لم تكن الطرق آمنة للسفر عليها قبل شهر مايو/آيار. ومرة أخرى جعلني جو الربيع أشعر بتحسن كبير. مرّ عام على نوبة مرضي وأصبحت أقوى من ذي قبل. كنت أشعر بأنني على ما يرام بالفعل حتى إن هنري اقترح أن نذهب في جولة سيرًا على الأقدام في أنحاء البلد حول الجامعة. رأيتها فكرة رائعة إذ يمكنني أيضًا أن أودع الأرض التي كنت أدعوها وطني على مدى الأعوام القليلة الماضية.

سافرنا لمدة أسبوعين، وأنعش الهواء النقي قلبي ورئتيّ، فقد أمضيت الكثير من الوقت في معملي وأنفي مدفون في التجارب والكتب. ونسيت تمامًا كم كنت أستمتع بوجودي في الخارج. تفتحت الأزهار وأخذني جمالها، وبدت الأشجار رائعة. وتلألأت صفحة مياه البحيرة، فنسيت السنة التعيسة الماضية.

تمشينا أنا وهنري وتسامرنا كثيرًا؛ فقد كانت تربطنا علاقة صداقة قوية، وقد أدخلت صحبته الطيبة السعادة على قلبي بشدة. تذكرت من كنت، قبل أن آتي إلى المدرسة وأعبث بالطبيعة وقبل أن أخطئ وأصنع مسخًا بشعًا.

رجعنا إلى الجامعة بعد ظهر يوم أحد. وفي طريق عودتنا إلى إنجولشتات لم نلتق إلا بأشخاص مبتهجين. ارتفعت معنوياتي وكنت أسير في نشاط وبهجة وامتلأ قلبي بالفرح.

الفصل الثامن

فرانكنشتاين يعود إلى وطنه

عندما عدت إلى المنزل وجدت خطابًا من أبي في انتظاري. فتحته في سعادة ووجدت أنه يحتوي على أخبار سيئة. قرأت كلمات أبي ببطء: «ليست هناك طريقة سهلة أخبرك بها هذا، مات أخوك ويليام.»

اغرورقت عيناي بالدموع، ومضيت في قراءة الخطاب: خرجت أسرتي للتمشية كعادتهم بعد تناول العشاء، وكان المساء دافئًا وهادئًا لذا قرروا المكوث خارج المنزل لوقت أطول من المعتاد. سار أبي وإليزابيث وراء ويليام وإيرنست، وبدلًا من أن يلحقا بهما قررا الجلوس وانتظار الصبيين إلى حين عودتهما. وعندما عاد إيرنست أخبرهما أن ويليام ركض كي يختبئ وهما يلعبان معًا، لكنه لم يستطع العثور عليه في أي مكان.

ارتعد أبي وإليزابيث، وبدءوا جميعًا في البحث عنه في الحال. أمضوا ساعات وساعات لكنهم لم يتمكنوا من العثور عليه، فاستدعوا الشرطة وتجمع فريق للبحث، وقضوا الليل كله يبحثون عن ويليام. بحثوا في كل مكان وكل ركن يمكن أن يختبئ فيه طفل صغير لكن دون طائل. لم ينبس أحد من فريق البحث ببنت شفة، لكنهم جميعًا خافوا أن يكون قد وقع مكروه لويليام المسكين. وكانت ليلة مفجعة لإليزابيث.

في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي عثر أبي على أخي، وقد وقع أسوأ ما كان يخشاه: كان ميتًا. حزن أبي والجميع حزنًا جمًّا.

وكتب أبي في الخطاب: «ارجع يا فيكتور، فأنت الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يساند إليزابيث في هذا الوقت العصيب.»

كان وقع الخبر على إليزابيث أصعب من وقعه على أي فرد في الأسرة، فقد ظنت أن الخطأ خطؤها؛ فهي التي أعطت ويليام في هذا الصباح قلادة ذهبية تخص والدتنا،

وظننت أنه لا بد أن القلادة هي التي تسببت في الحادث السيئ، فقطعًا التقى به لص وحاول أن يأخذ القلادة. لو لم تعطه إياها لكان لا زال على قيد الحياة.

وضعت الخطاب على الطاولة وأجهشت في البكاء.

قال هنري: «فيكتور، ما الخطب؟ هل وقع مكروه؟»

لم أستطع أن أتكلم، لذا أعطيته الخطاب، فصاح هنري: «يا إلهي! وماذا ستفعل؟»

أجبته: «لا بد أن أرجع إلى بلدي في الحال؛ فأسرتي في أمس الحاجة إليّ، ويجب أن أكون معهم.»

حزمت حقيبتي في عجالة، ولم يكن هناك وقت للتنظيم فألقيت الأشياء بداخلها في كل الاتجاهات في محاولة ألا أفكر في أمر أخي المسكين. ساعدني هنري، وطلب من مديرة المنزل أن تعبئ لي غداءً، وقد فعلت هذا برضا. ورتبنا معًا كتبي وأوراقي وملابسي من أجل رحلة العودة إلى جنيف.

كان هنري ينوي أن يستمر في الإقامة بشقتي في إنجولشتات، فلا بد أن يكمل دراسته، ولم أكن أمانع في هذا. غير أنني أغلقت معملي جيدًا وأخذت المفتاح معي إذ لم أشأ أن يدخله هنري أثناء غيابي.

سرنا ببطء، وقلوبنا تدمي، إلى العربة. عانقني هنري بقوة وودعني وداعًا مليئًا بالشجن وقال: «أرسل تحياتي إلى أسرتك يا فيكتور، وأخبرهم أنني في غاية الحزن لما حدث.»

– «سوف أخبرهم يا هنري. أنت صديق مخلص. سأفتقدك بشدة.»

ولم يكن هناك شيء آخر يُقال، لذا صعدت إلى العربة، وصاح السائق في الحصانين وابتعدنا. التفتُّ لأطل عبر النافذة على هنري الذي كان لا يزال يقف في مكانه يلوح بعدما ابتعدت العربة، وانهمرت الدموع على وجهي. انتحبت على أخي العزيز الطيب، وفكرت في أمي. شعرت بالأسف على نفسي، وعلى خذلاني لأسرتي. كان لا بد أن أكون سندًا لهم أثناء هذا الوقت العصيب. كل ما تمنيته هو ألا يكون قد فات الأوان.

كانت العربة دافئة ومريحة، لكن رحلتي التي دامت ثلاثة أيام كانت مليئة بالألم؛ فقد مرت ست سنوات منذ أن رأيت وطني. وعندما رأيت قمة الجبل الأبيض أجهشت بالبكاء؛ فها هو وطني، وطني الحبيب! وحل الظلام عندما اقتربنا من الوطن، وبوصولنا إلي جنيف كانت المدينة قد أغلقت أبوابها، فاستدار السائق واتجه بي إلى مدينة سيشرون الصغيرة التي تبعد نحو ميل حيث قضيت الليل.

عندما ترجلت من العربة وتمطيت نظرت لأعلى ورأيت السماء صافية وتزخر بالكثير من النجوم. راق لي الجو من حولي. كانت ساقاي متعبتين للغاية من طول السفر، فأدركت أنني لن أستطيع النوم أبدًا، فقررت أن أزور البقعة التي عثر أبي فيها على ويليام.

ولمّا كانت أبواب المدينة مغلقة، كان لا بد أن أعبر بحيرة جنيف بالقارب. ومن حسن حظي أنني استطعت أن أستعير قاربًا من النُّزل الذي كنت أقيم فيه. وأثناء رحلتي القصيرة انقلب الجو سريعًا للأسوأ فأومض البرق في السماء التي كانت صافية منذ دقائق فحسب. وبدأت الأمطار تهطل، فجدفت بالقارب بكل ما أوتيت من قوة كي أصل إلى البر. تلبدت السماء بالغيوم، فصعب عليّ أن أرى طريقي. وقصف الرعد فوق رأسي وأنا أتقدم بسرعة نحو البر.

رسوت على الشاطئ وسحبت القارب بعيدًا عن المياه وربطته ثم ركضت نحو الغابة. وكانت عندي فكرة مبدئية من خطاب أبي حول مكان وقوع الجريمة، لذا سرت بهذا الاتجاه. صحت بقوة: «أوه، ويليام! أيها الصبي الحبيب المسكين.» وفيما فارقت هذه الكلمات شفتي رأيت شخصًا يركض بعيدًا من وراء الأشجار. وقفت كالصنم في مكاني. أيعقل هذا؟ أجل! لقد كان المسخ؛ ذاك الكائن المخيف الذي بعثتُ فيه الحياة. وفي الحال أدركت أنه هو من اقترف الجريمة. هو وحده من اقتنص حياة ويليام؛ هذا المسخ اللعين!

بدأت أسناني تصطك بعضها ببعض، وشعرت بوهن في ساقيّ، فاتكأت على إحدى الأشجار وحاولت أن أتنفس بعمق. رأيت المسخ وهو يركض بسرعة مبتعدًا. وبدأت أطارده على الرغم من الوهن الشديد الذي أصاب ساقيّ. أصابت أغصان صغيرة ساقي، وكدت أتعثر فوق عدد من الصخور. ركضت بأقصى سرعة ممكنة لديّ. قفز المسخ فوق أشجار متساقطة ثم جثم تحت الأفرع. حاولت بكل ما أوتيت من قوة أن أمسك به لكن دون طائل، فقد بلغ حافة الغابة الصغيرة ثم اختفى.

جلست بجانب إحدى الأشجار فيما استمرت الأمطار في الهطول، فكانت ملابسي تتشرب بالماء أكثر فأكثر، لكنني لم أستطع الحراك. تُرى ماذا يريد المسخ؟ وهل كانت هذه جريمته الأولى؟ ما عدد الأشخاص الآخرين الذين آذاهم؟

قضيت ليلتي مبللًا وأشعر بالبرد القارص في الهواء الطلق. وعندما طلع النهار شققت طريقي عائدًا للنُّزل وأرجعت القارب. قررت أن أسير بقية الطريق إلى المنزل، فقد

يساعدني هذا الوقت على التفكير، وتولى سائق العربة نقل حقائبي إلى المنزل. وتسارعت الأفكار في ذهني: كيف أفسر لوالدي ما حدث؟ كيف أخبره أنني صنعت إنسانًا، مسخًا، من أعضاء مختلفة؟ كيف أخبره أن هذا المسخ قتل ويليام وأنه مختبئ في مكان ما في الجبل الأبيض؟ سأبدو مجنونًا. لا، لا بد أن أحتفظ بسري لنفسي في الوقت الحالي. ليس أمامي خيار آخر.

وأنا أسير في الطريق نحو منزلنا لاحظت أنه لم تحدث سوى تغيرات طفيفة للغاية، ولم يبدُ أن المنزل تغير، وكان هذا يبعث على الراحة. وفي هدوء فتحت الباب الأمامي ودلفت للداخل، فوجدت أخي إيرنست مستيقظًا بالفعل وجالسًا في غرفة المعيشة.

ابتسم ابتسامة واهنة وقال: «مرحبًا بعودتك يا فيكتور! يؤسفني أن عودتك جاءت وسط كل هذا الحزن. وحينما فتحت ذراعيّ كاد إيرنست يسقط سقوطًا فيهما وأجهش بالبكاء. كنت متألمًا أيضًا. لو لم أجبر نفسي على العمل بهذه الجدية، لما حدث هذا أبدًا. أنا المسئول مسئولية تامة عن وقوع هذا الخطأ. لقد دمرت هذه الأسرة الجميلة بيديّ، وعملي هو السبب في الحزن الذي تشعر به عائلتي الآن.

سألته: «كيف حال أبي وإليزابيث؟»

مسح إيرنست عينيه وحاول أن يقف بثبات وقال: «حزينان، لكن لمّا قُبض على الجاني الآن ...»

قاطعته: «قبض عليه؟ ماذا تقصد؟ لقد رأيته طليقًا الليلة الماضية.»

ارتبك أخي وقال: «لا، إنها جاستين، مربية ويليام. لقد وُجه إليها الاتهام وهي في السجن الآن. قبضت الشرطة عليها الليلة الماضية؟»

ارتبكت وقلت في دهشة: «جاستين؟! إنها فتاة طيبة؟ لا، إنها ليست مذنبة. لا بد أن هناك خطأ ما.»

جلس إيرنست على الأريكة وشرح ما حدث: «بعدما رجع أبي بالأخبار السيئة مرضت جاستين، ولازمتها الحمى لبضعة أيام، فاستدعى أبي الطبيب الذي لم يجد بها أي علة. وبينما إحدى الخادمات تأخذ ملابس جاستين لتنظيفها، إذ وقعت قلادة أمنا من جيب تنورتها. تكتمت الخادمة الأمر عن الأسرة لكنها ذهبت إلى الشرطة مباشرة.»

واسترسل أخي: «وعندما جاءت الشرطة لتستجوبها، لم يكن من جاستين إلا أن بكت. كانت مرتبكة أيما ارتباك ومنزعجة للغاية حتى إن الشرطة قررت أنها لا بد أن تكون هي الجانية.»

وبينما نتحدث دخل أبي، وقد بدا خائر القوى ومتعبًا، لكنه ابتسم ابتسامة دافئة عندما رآني.

قال أبي: «بني، كم أنا سعيد لعودتك إلى بيتك.» وعانقته بقوة.

هتف إيرنست: «أبي! يعرف فيكتور من قتل ويليام ...»

قال أبي: «وا أسفاه، ونحن أيضًا نعرف، وليتني ما كنت أعرف. من المؤسف أن تعرف أن شخصًا عاملناه كفرد من أفراد الأسرة يفعل شيئًا بهذه البشاعة.»

قلت: «لكن جاستين بريئة يا أبي.» كنت أتوق إلى أن أخبره كل شيء بشأن المسخ وكيف فشلت تجربتي فشلًا ذريعًا، لكنني لم أستطع، فسيغضب مني لا ريب.

قال أبي: «حسنًا، أتمنى أن تكون على حق. ستبدأ محاكمتها اليوم.»

التفت لأرى إليزابيث قادمة نحو الغرفة. لم يغير الزمن من ملامحها، فعلى الرغم من حزنها الواضح، فقد تحولت من فتاة صغيرة لطيفة إلى امرأة جميلة. ولما رأيتها اضطرمت نيران الحب الذي أكنه لها في قلبي.

تعانقنا، وكما أبي وأخي، قالت لي هي أيضًا إنها سعيدة بعودتي إلى البيت. أخبرها إيرنست سريعًا عن حديثنا.

التفتت إليزابيث إليّ وقالت: «فيكتور، لا بد أن ننقذ جاستين. لا أصدق أنها هي التي ارتكبت الجريمة، ولن أصدق هذا!» ثم جلست على الأريكة، وأخرجت منديلها من جيبها ومسحت دموعها.

ثم أردفت إليزابيث: «إنها فتاة طيبة، وقد أحبت ويليام كما لو كان أخاها، ويستحيل أن تكون قد آذته. لا أستطيع أن أتخيل موقف الشرطة!»

أجهشت إليزابيث في البكاء مرة أخرى، فوضعتُ يدي على كتفها وقلت: «إليزابيث اهدئي. جاستين بريئة، ليس هناك ما نخشاه. ولن تُسجن.» وبداخلي قطعت وعدًا بأن أفعل كل ما بوسعي كي أعوض عن كل ما ارتكبته من أخطاء وأصلح الموقف الذي جعلت أسرتي تمر به؛ فهم لا يستحقون أن يعانوا بسبب أخطائي الكثيرة.

قلت لإليزابيث: «لا تقلقي، سيكون كل شيء على ما يرام.» ثم ابتسمت لها ابتسامة دافئة وأمسكت بيدها وقلت: «أعدك بهذا.»

أضاف أبي: «لا بد أن نثق أن نظامنا القانوني سيفعل الشيء الصحيح. حتمًا ستظهر الحقيقة.»

وبتلك الكلمات الأخيرة اتجهت أنا وأسرتي إلى غرفة الطعام لتناول الإفطار حيث ساد الصمت. كنت أعلم في قرارة نفسي أنهم يفكرون في ويليام المسكين، وكم كانت

ستحزن أمي لو أنها على قيد الحياة. لكن ذهني كان يعاود التفكير في فكرة واحدة مرعبة: أين المسخ الآن؟

الفصل التاسع

محاكمة جاستين المسكينة

بدأت المحاكمة في تمام الساعة الحادية عشرة صباحًا. وذهبت الأسرة بأكملها إلى المحاكمة. ذهب أبي وإليزابيث كي يشهدا في المحكمة أن جاستين إنسانة بارة، أما أنا وإيرنست فقد اقتصر دورنا على المؤازرة. فاضت نفسي بالغضب والندم؛ إذ كان يجدر بجاستين أن تحيا حياة طيبة، فهي إنسانة مخلصة وبارة، وما كان يجدر أن تخضع لمحاكمة بتهمة القتل! غير أنني لم أستطع أن أخبر أي شخص بما أعرفه، فقد يظنونني مختل العقل، ويعزلونني بقية حياتي. وأي نفع سيعود من وراء هذا؟

جلست جاستين في قفص الاتهام، وبدت شاحبة لكن هادئة، وانهمرت الدموع على وجنتيها لدى رؤيتها أسرتي تدخل قاعة المحكمة.

طلب حاجب المحكمة من الحضور أن يلتزموا النظام وأعلن بدء المحاكمة. اجتمعت الأدلة ضد الفتاة المسكينة. ذكر الادعاء أنها قضت الليل كله بالخارج، وذكرت إحدى البائعات في السوق أنها شاهدتها باكر الصباح التالي في مكان قريب من البقعة التي عُثر فيها على جثة ويليام. وسألت المرأة جاستين ماذا تفعل، لكن كل ما حصلت عليه هو إجابة مشوشة. أما أقوى دليل ملموس ضدها فهو واقعة عثور الخادمة على القلادة المفقودة في ملابس جاستين.

دعا القاضي جاستين لتدافع عن نفسها، فكان صوتها واضحًا، لكن كان من الجلي أنها مرتبكة أيما ارتباك.

قالت: «إنني بريئة تمامًا. أعرف أنني أستطيع أن أقولها جهارًا، لكنكم لن تصدقوني. وسمعتي الطيبة يجب أن تكون دليلًا أيضًا.»

أخبرت جاستين القاضي أن إليزابيث سمحت لها بزيارة عمتها يوم مقتل أخي. وفي طريق عودتها إلى جنيف التقت برجل سألها هل رأت صبيًّا صغيرًا مفقودًا. وعندما

أدركت جاستين أنه ويليام الذي لم يمكن العثور عليه، انضمت إلى فريق البحث، وعلى مدار الساعات القليلة التالية بحثت في كل أنحاء الغابة عن أخي.

ومضت جاستين في حديثها مخبرة المحكمة بأنها توقفت أخيرًا عن بحثها في وقت متأخر للغاية. وفي ذلك الحين كانت المدينة قد أغلقت أبوابها، ولم تعرف جاستين ماذا تفعل، لذا طلبت بلطف من رجل كبير أن تنام في مخزن الحبوب الخاص به.

قضت ليلة باردة مرعبة مستلقية على بعض القش في مخزن الحبوب بالقرب من المدينة. وكانت أي ضوضاء حولها توقظها لذا لم تنم إلا وقتًا ضئيلاً للغاية. وعندما التقت بالبائعة كانت مضطربة لأنها لم تنم. ولو أنها كانت تسير بالقرب من البقعة التي عُثر فيها على ويليام، فهي لم تفعل هذا عمدًا. وماذا عن القلادة؟ قالت جاستين وهي تبكي إنها لم تعرف كيف وصلت إلى جيبها. كان هذا هو الشيء الوحيد الذي لم تستطع تفسيره.

بعدئذ تحدث كثيرون من أهل البلدة. كثيرون منهم يعرفون أن جاستين إنسانة صالحة، لكنهم يصدقون الدليل. رأوا أنها كانت مذنبة. وأخبر والدي هيئة المحكمة كيف أحسنت جاستين خدمة أسرتنا. وبعد ذلك استدعت هيئة المحكمة إليزابيث إلى منصة الشهادة، وأخبرت إليزابيث المحكمة أنه لا يمكن أن تفعل جاستين أي شيء يؤذي الأطفال الذين تربيهم.

أقسمت إليزابيث قائلة: «إنها بريئة تمامًا.»

حركت كلمات إليزابيث كثيرين من الحضور. ونظرت جاستين في امتنان لكلماتها الطيبة وعلت وجهها أمارات الشجاعة. غير أن القاضي لم يبد مقتنعًا على الإطلاق. وأدلت هيئة المحلفين بأصواتها وانتظرنا بصبر عد الأصوات.

عاد حاجب المحكمة إلى قاعة المحكمة وأعلن أن جاستين مذنبة! شعرت باليأس الشديد، وحُكم على جاستين أن تقضي بقية عمرها في السجن. انهارت إليزابيث إلى جانبي وأجهشت بالبكاء. ولم أدخر جهدًا كي أواسيها على الرغم من الألم الذي يجيش بصدري.

كان كل هذا خطئي أنا! ويديّ — ليس سواها — هي التي صنعت هذا المسخ. ولم أستطع أن أوقف ذهني عن تقليب هذه الذكريات البشعة مرارًا وتكرارًا. ماذا لو لم تكن هذه الحادثة هي آخر الأفعال الشريرة التي يرتكبها المسخ؟ ماذا لو أن ويليام وجاستين هما أول ضحاياه؟

أنا حيّ طليق وأخي ميت وجاستين في السجن. ما من شيء من شأنه أن يزيل الألم الذي يجيش في نفسي؛ فرغبتي العمياء في الوصول إلى اكتشاف عظيم كان ثمنها غاليًا للغاية. وبدلًا من أن أجد أملًا في عملي، لا أشعر بشيء الآن سوى الحزن.

تركت أحداث الأسابيع القليلة الماضية آثارها السيئة على جسدي الواهن أصلًا. ولم يستطع شيء أن يفصلني عن حزني العميق سوى حديث طويل مع أبي.

قال أبي بعد ظهر أحد الأيام عندما رآني جالسًا في أحد الأركان أحدق عبر النافذة: «يا بني، لم يحب أحد طفله بالقدر الذي أحببت به أخاك، لكننا لا يمكن أن نقضي كل أيامنا نحدق في جمود عبر النافذة. كلنا حزانى. ينبغي أن تكون نافعًا لكل من جاستين وأخيك، فبدون هذا لن ينفع أي رجل مجتمعه.»

كان أبي على حق، لكن كلماته لم تعن الكثير لي.

قررنا أن نقضي بعض الوقت في منزلنا الصيفي في بيليريف، إذ كان غلق أبواب المدينة في وقت مبكر من المساء يشعرني بأنني حبيس. وسعدت بوجودي في الريف وبالقدرة على التجوال بحرية.

كنت أترك المنزل معظم الليالي وأفراد أسرتي نائمون. كنت آخذ القارب وأقضي ساعات عديدة في الماء. أحيانًا كنت أترك الشراع مرفوعًا وأشق طريقي بوجهة معينة، لكنني في معظم الأحيان كنت أترك المياه لتحمل القارب إلى حيث تشاء، وأستلقي في قاعه وأحدق في النجوم، فكان جمال السماء البسيط يحملني على البكاء. كنت أبكي بصوت مرتفع عالمًا أنه ما من أحد سيسمعني أو يراني سوى الضفادع والأسماك.

عشت في خوف طيلة الوقت لمعرفتي أن المسخ لا يزال على قيد الحياة. ماذا لو فعل شيئًا آخر؟ كيف سأحترم ذاتي؟ ماذا لو آذى شخصًا آخر أحبه؟ أثارت هذه الفكرة غضبي بشدة فصررت بأسناني وصرخت بأعلى صوتي.

في تلك اللحظات كل ما كان يشغلني هو حرمان ذلك المسخ من الحياة التي وهبته إياها. لو استطعت أن أعيد عالمي إلى الحالة التي كان عليها قبل أن أجري تجاربي، لعلي كنت أستطيع أن أصلح الأمور مرة أخرى. كانت الأفكار التي تشغلني حينها أفكارًا شريرة. لكن أيهما أسوأ؟ صنعه أم قتله لمنع وقوع المزيد من الأمور السيئة؟ لقد كانت معضلة أخلاقية من الدرجة الأولى.

كان كل فرد في بيتنا حزينًا. وحاول أبي أن يبدو قويًّا متماسكًا، لكن جميعنا كان يدرك أنه لم يعد كما كان. وكادت إليزابيث تبكي كل يوم تقريبًا. وحاولت من أجلهما أن أكون قويًّا من الخارج وأن أخفي ألمي الداخلي.